قصة تطوف الدنيا

يا أيهاالأب الأقدس*، مع أنني لم أتوجه إلي حضرتكم حتي الآن، فأتوجه إليكم إلي أبد الآبدين. فأتجوه إليكم من قاع الكون حيث أعيش كلّا من حياتين أخروية و دنياوية، بوجه أن لست أدري حيث أنا. فأتوجه إليكم من بيت مجنون حيث أوقعوني و أنا علي قيد الحياة. إنني حتي ما علمت أنني في مستشفي المجانين لأن كل شيء كان عاديا – فمع كونها مشوّهة، كانت للبيت نوافذ أيضاً. عندما انتقلت من الدار الأُولي إلي الدار الآخرة، ما فتئ الجنون في رأسي الذي فيه فوضي شاملة. أنا موجودة في مستشفي المجانين و لكن لست بمجنونة. إنني حتي أحسن حالاً هنا، في الآخرة التي أتظاهر بالحياة فيها، مني في دنياك تلك، هنالك. بيد أنه قد خانتني ذاكرتي، بوجه أن لست أدري من أنا و لا لمن أنا. لست أدري إن ولدت كاثوليكية أم أدخلت في الكثلكة أيّام إرجاع الأرثوذكسيين إلي دين آبائهم. أيّام تحولهم و هم غير متحدين إلي الكثلكة التي يسعهم أن يجدوا الخلاص الأبدي فيها. لست أدري إن أنا كرواتية في بدن صربية أم بالعكس و لا لمن اسمي، يعني إن سمّتني أمّي به أم حصلت عليه عند تثبيتي الديني.
ألاسم هو الوهم و الإله هو الحق.
يا أيهاالأب الأقدس، إنني أتعرف كدوبريلا مارتينوفيتش (Dobrila Martinović)، باعتباري معلمة كانت تعمل في المدرسة الابتدائية الشعبية التي كان الأطفال المعترفون بالمذهبين الكاثوليكي و الأرثوذكسي يرتادونها.
و كانت المدرسة الابتدائية الشعبية بشاريغوفتس (Šargovac) في مشارف مدينة بانيالوكا (Banja Luka) التي أيّام تأسيس الدولة الكرواتية المستقلة (Nezavisna Država Hrvatska) كان يجب أن تكون حاضرة تلك الدولة و تسمي بـ «ضدّ المدينة» (Antigrad). و من الناس من سيقنعكم بأن تلك هي «مدينة آنتو» (Antin Grad) و لكن ذلك لا يحقّ. ذلك ما أوكّده لكم من رأسي أنا، من مستشفي المجانين المروّض.
ألتاريخ هو الوهم و الإله هو الحق.
يا أيهاالأب الأقدس، آنذاك، في تلك الدولة المؤسسة حديثاً لا أحد استطاع أن يعيش فيها إلّا الكروات. من لم يرد أن يدخل في الكثلكة، فقد علم «الأوستاش» (ustaše) ما العمل معه. وقتئذ حتي الطفل الصغير في السابعة من عمره إذا منع التقدم الأوستاشي، لم يكن قتله كبيرة من الكبائر. أمّا الأطفال الأرثوذكسيون، ذلك النسل الهراطقي، فلقد كانوا منعة. بما أنه greace ides,nula fides، بما أنه «المذهب اليوناني ليس بمذهب»، فكان يجب أن تُكنس بالمكنسة الحديدية المدرسة الابتدائية الشعبية بشاريغوفتس حيث كنت أنا، من سوء بختي، معلمة من هؤلاء المرتدّين من المذهب الروماني الكاثوليكي. أمّا كنيسة حضرتكم، فصادقت علي المكنسة الحديدية و هي رامية إلي خلق Civitas Dei، و حتي استدعت، و هي واثقة برحمتكم، إلي منح الذين كانوا أحياناً يتخطون الحدود الضيقة للأخلاقية الدينية و السلوك و هم قوّام بذلك العمل الوطني، إلي منحهم الغفران.
ألغفران هو الوهم و الإله هو الحق.
يا أيهاالأب الأقدس، إنه في السابع من فبراير طبقاً للتقويم الغريغوري سنة ١٩٤٢ اقتُحمت المدرسة علي يد «السرية الأوستاشية للكتيبة الحرسية الثانية لآنتو بافيليتش» التي قادها الملازم الأول يوسب ميسلوف، النقيب

---

* المسألة هي مسألة البابا يوحنا بولس الثاني الذي أتي مدينة بانيا لوكا في ٢٢ يونيو ٢٠٠٣ لكي يطوّب العلماني الكاثوليكي ايفان مارتس في الدير بباتريتشافتس، في مسقط رأسه. لتطويب ايفان مارتس الذي توفي حتي في سنة ١٩٢٨ القديمة و الذي كان يلتزم شعار: «Aut Catholicus aut nihil، إن كاثوليكيي و إن لا شيء» في المكان حيث أيّام تأسيس المنتج الأوستاشي، يعني الدولة الكرواتية المستقلة، في أثناء الحرب العالمية الثانية في ٦ فبراير ١٩٤٢ لقد تمّ اجتماع رأسه راهب الدير فياكوسلاف فيليبوفيتش. ففي ذلك الاجتماع قر الرأي علي القيام بتذبيح السكان الصرب في اليوم التالي، يعني في ٧ فبراير، و ذلك في منطقة القري في ضاحية المدينة: دراغوتشاي (Drakulić) ، موتيكه (Motike) و شاريغوفتس (Šargovac). و هذا الذي فُعل، عندما، تحت قيادة الراهب فيليبوفيتش، قُتّل و ذُبّح ٢٢٩٨ رجلاً، امرأة و طفلاً صربية جنسيتهم في اليوم الواحد.

نكولا زاليتش و كاهن من كهنة الأسقفية من دير باتريتشافتس (Petrićevac) حيث يجب عليك أن تطوّب العلماني الكاثوليكي ايفان مارتس (Ivan Merc)، الذي كان يودّ الكنيسة و نائب السيد المسيح، الذي كان يقاتل في سبيل الكرسي الرسولي و أشار إلي الشباب الكرواتي بالسبيل إلي الشمس إشارة العقاب، أو قل بكلمة أخري، أن تعلنه قديساً. قديساً، إنه يقال هكذا. أمّا كاهن الأسقفية ذلك من دير باتريتشافتس الذي مر ذكره، فهو الراهب ميروسلاف فيليبوفيتش (Miroslav Filipović)، غير أن هناك من يظن بالراهب توميسلاف فيليبوفيتش (Tomislav Filipović) و من يظن بالراهب فياكوسلاف فيليبوفيتش (Vjekoslav Filipović) أيضاً .و لكن كل تلك الظنون غير مؤثرة، لأن المسألة هي مسألة نفس الشيطان الواحد. الشيطان الذي ترك الإله اسمه.

ألشيطان هو الوهم و الإله هو الحق.

يا أيهاالأب الأقدس، إنه الراهب الشيطان أجبرني علي أن آخذ سجّل التلاميذ فأفرّق أطفال الأرثوذكسيين عن أطفال الكاثوليك، علي أن أفرّق بين الأطفال الذين كانوا أحبّ إليّ من عينيّ هاتين اللتين أتبصر من خلالهما. عندما فرّقت بينهم، لا أدري ما هو جري مع الأطفال. يقولون إن ذوي القمصان السوداء، و لم أر أنا ذلك، أكرهوا الأطفال الكاثوليك، و هم رماة إلي حصولهم علي التربية الأوستاشية الكاملة، علي حضور ذلك التمثيل المحزن كحضورهم درساًما، علي أن يشاهدوا أبناء الكلب و هم يقتّلون أترابهم. لكنني لا أعلم كيف كانوا يقتّلونهم و لا هل قتلوا أنفسهم أم قتلوهم. و لا أعلم حيث: هل في غرفة التدريس، في الدهليز، علي الدرج، في فناء المدرسة أم علي صفحات كتاب القراءَة. لا أذكر إلّا عيونهم المباركة، إلّا النظرة التي كانت تستصرخني استصراخاً بينما كان الجلّادون يناقلون دبابيس ما من يد إلي أخري، و لكنني لم أستطع أن أساعدهم.

تلك هي أعظم الصور رهبوتاً التي جئت بها و أنا ذاكرة من دنياك، لأنني لست بمنتمية إلي الدنيا منذ زمن.

أمّا ما جري بعدها فلا يمكن إيعابه في القصة.

ألذي هو وراء مقدرة العقل البشري، فلا يمكن قصصه.

ألقصة هي الوهم و الإله هو الحق.

يا أيهاالأب الأقدس، إنه كان شهر بذر، شهر فبراير، فثُلجت الدنيا جمعاء ثلجاً كبيراً كان غطّاها إلي حد خصر الإنسان، حين اقتحام ذوي القمصان السوداء المدرسة. ما كان لأحد منهم لون من الألوان الدائمة علي وجهه. لو كان في استطاعتي أن أرسم الكاريكاتير، لأنا أرسمهم علي شكل الصراصير، و لكنه ليس هذا في استطاعتي. و ليس في استطاعتي أن أصفهم، ليت الوصف احتوي عليهم. حتي الكلمات مثل: «وحش الناس»، «النذال»، «النتني» أو «وحل الناس» لا تصل إلي معناهم.

ما أحزن ذلك.

يا أيهاالأب الأقدس، الكلمات هي الوهم و الإله هو الحق.

كانوا مدججين بالسلاح و كلهم، بَستثناء الذين قادوهم، من أبناء الهرسك، و هذا ما أخذته من كلامهم. و قال قائل بعدها إنه لا أحد منهم استخدم سلاحاً نارياً لكيلا يرعب الأطفال. لا أعلم لماذا قد حكي كثير من الناس بعدها أنهم كانوا يقتلون الأطفال الحديث إبصارهم النورَ بسكين مسمَّي بالـ «بود» (bod)، «البود الأوستاشي» (ustaški bod)، و بهراوي، و أفؤس، و مذارٍ، و حراب و، في أغلب الأحيان، بكرة معدنية علي لوح خشبي مسمّي بالـ «صربوملات» (srbomlat). و (لماذا) حكوا أنهم كانوا لا يقتلونهم إلّا بأدوات غير حادّة، لكيلا يكون القتل بمسمع. أمّا أنا، فليس في مقدوري أن أشهد بذلك. أنا لا أذكر إلّا عيونهم التي كانت تتوسل بالرحمة. لا أنسي تلك العيون أبداً. العيون التي كان فيها رعب، صراخ، هول، موت! و (لا أذكر) إلّا تفصيلاً آخر بالإضافة إلي ذلك. أذكر أن الدم كان يورّد الأظفار المقلمة لذباح من الذباحين و يده قابضة عل الصربوملات و أن ذباحاً آخر قد وثب وثبة إلي الوراء لكيلا يرشّه الدماغ الطفلي المتفرق من الرأس الحطيم و أن الثلج كان يتشرب الصرخات الطفلية.

لا أذكر غيرها.

(لا أذكر) غير عيونهم التي كانت تتعقبني فيما رأيته في منامي أيضاً حتي ليخيل إليّ أنني أتجنن.

لا جريمة يمكنها أن تكون هائلة بمثل ما يمكن الذي يرتكبها أن يكون هائلاً.

ألجريمة هي الوهم و الإله هو الحق.
يا أيهاالأب الأقدس، إن القنصل الإيطالي لا يصح إخباره في تقريره المفصل بأنه لقد قتل ٥٦ طفلاً أرثوذكسياً في ٧ من فبراير سنة ١٩٤٢ في المدرسة الابتدائية الشعبية بشاريغوفتس و لا ما سجله الألمان المدققون، و ذلك أنه قد قتل ٥٣ طفلاً. أود لو تعطف عليّ ففيما أنا فيه لا يمكنني أن أبيع الضحايا بالمزاد العلني. و لو وصلت كوروزوفيتش دراغيتسا (Kuruzović Dragica) إلي المدرسة في ذلك اليوم، لكان الألمان علي صواب و لكنها ما وصلت إليها. إنها يومها ذهبت إلي بوريك لزيارة خالتها فلم تذبح. أدلي إليك بشهادتي من الآخرة، لأنه لا حذر دنياوي يكلّفني بألّا أقول الحقيقة.
ألرياضيات هي الوهم و الإله هو الحق.
يا أيهاالأب الأقدس، عندما صرت متشرفة بالجنون كان الأمر كله قد تقضي. و لكني ما جننت لأنه ما كان بوسعي أن أحمل الصور التي لبثت تتعكاس في عبرتي، لأنني شاهدت من مشاهد تغسل الإنسان من كل ما هو فانٍ و تقترح معني الحياة و سخفها بالنشاط العظيم. بل إنني فقدت صوابي بعد مذبحة حين أكرهني المراضيع علي أن أدوّن في الدليل الرئيسي المتحول إلي القائمة الدموية، بجانب اسم كل طفل مذبوح أنه قد مات حتف أنفه في ٧ من فبراير ١٩٤٢. فكان ينبغي ألّا أسمح لي بذلك، بإهانتهم إيّاي إلي حد أن أسجّل في الدليل الرئيسي بخط يدي أن الأطفال ماتوا حتف أنوفهم! أمّا فيما يتعلق بذلك الدور فأعترف بكبائري.
باسم يسوع المسيح و العذراء أطلب الغفران.
فليحكمنّني الكلي القدرة.
منذئذ أنا غير قابلة للتسلية. منذئذ ليس في استطاعتي أن أهدأ فسوف لا أهدأ و لا أتخلص أبداً.
تلك الغفلة هي عذابي. إنها انحلّت إلي حساسية قطّعتني قطعاتٍ صغيرة بوجه أن غربت عن كمالي غربة تامة.
أنا عالمة بطريقة فقد صوابي علماً قليلاً. الذي سبق لم يكن نسيانه محتملاً ربما. ليل نهار كنت أتحطم ألم الأعصاب. كانت أعصابي متوترة بوجه أنها كانت تنبض نبض الهول. كنت أحس بنفسي أحاسيس مختلفة حتي بأنني كلب. حتي أسلو عن نفسي، كنت أري في منامي أنني عدمٌ و لكن ذلك لم يشف أيضاً. أنا عالمة بلحظة تعقد فيها جسمي في الجهاز العصبي و انسدّ في ألف وريد مشوّش و ابتدأت بمقاومة تنفسي، بلحظة ظننت فيها أنه ليس بوسعي أن أبقي علي كل هذا هو الآخر، غير أنه لم أبق عليه هو الآخر في حقيقة الأمر. أنا عالمة ضبطاً بما كان إحساسي بنفسي حين نادوا بي أخروية و سوّروني بعدئذ في اليأس.
أنا أخروية حالياً، في عالمي المتناهي.
إنه في مقدور الإنسان أن يبقي علي كل شيء إلّا الموت.
ألموت هو الوهم و الإله هو الحق.
يا أيهاالأب الأقدس، حيث أنك ترحل الدنيا باعتبارك السائح، حيث أنك تمارس التجارة بغفران الكبائر نقداً (indulgencija) و اشتراء الأسهم و غفران الكبائر، باعتبارك البابا الرحال، فإنه لا أحد يستحق أن يقول لك إلّا من رأي كلاً من الجهتين، إلّا من يعيش كلاً من حياتين دنياوية و أخروية: أترك المسافرات، اترك تقبيل مدرج الطائرات و رفع الأطفال الكساة بالقمصان الصغيرة المنشّاة و التنورات البرانية الصغيرة المخرّمة فوقك و (اترك) التمسيد علي أشعارهم، اترك مباركة الرعية برفع يدك – و تتبصر الخلود!
أنا ملّالة من المعني، ملّالة من الأخلاقية الخادعة، ملّالة من العبر علي الجنازة العامة.
لم يولد عدل من مذبحة أبداً فلا يولد من هذه المذبحة هي الأخري.
لم أعلم فيما مضي و لكني عالمة حالياً بأنه ليس هناك شرق و لا غرب بل هناك مجرد الفاتيكان.
عندما وقفت علي أنك بصفتك شاهد الإنجيل الراحل تأتي المكان الذي زُرعت الجريمة فيه، علي أن ذاتية خاصة بمثل صيتك الحسن تأتي المكان حيث في اليوم السابق ليوم المذبحة تم اجتماع شارك فيه كاهن الأسقفية الأكبر السابق فيكتور غوتيتش (Viktor Gutić)، كاهن أسقفية مدينة بانيا لوكا د. نكولا بيلوغريفيتش (Nikola Bilogrivić)، رئيس المحكمة ستيلوفيتش (Stilović)، و عدة كهنة، فكنت آمل أن تزور المدرسة الابتدائية الشعبية بشاريغوفتس هي الأخري بالنيابة عن الإدارة الباباوية الرومانية. أن تأتي المكان حيث كانت الجريمة تُرتكب و الكرسي الرسولي ينظر إليها بعين الرضي. أن تأتي حضرتك صربسكي ميلانوفاتس (Srpski Milanovac) الراهنة، مكان الجثث و الدخان، حيث كان السيد المسيح يدفق نفسه الطاهرة دفقاً، حيث كان يُخمد الجمر، أن

تنحتي للعرش حيث قد ذُبحت مدرسة ابتدائية واحدة. (كنت آمل) أن تأتي حضرتك أن تسمع أصوات الأطفال المذبّحين الذين يطوفون المدرسة، أن تسمع ضجتهم الميتة، أفراحهم الميتة، غنانيهم الميتة التي كانوا يغنّونها و يتلونها.
سبق لي أن أعددت كرتوناً، ليس كرتوناً بل ورق الصحف العادي الذي كانت أسماء الأطفال المذبّحين مدوّنة عليه، غير أنهم لم يسمحوا لي بوضعه، بتعليقه بمكان. بأيّ مكان، لا بلوحة الإعلانات، و لا بالمدخل و لا أن أعلّقه بأيّة شجرة في فناء المدرسة.
و لا حتي بسياج المدرسة.
لكن لا تسألني من هو الذي لم يسمح. تصور، لم تسمح وزارة التربية و التعليم للجمهورية الصربية (Republika Srpska). لقد كانت الجماعة المحلية معها، و المواطنون، و إدارة المدرسة و مجلس التعليم المدرسي جميعاً. أمّا وزارة التربية و التعليم، فما كانت معها.
يقولون إن الفرصة ليست سانحة. فينبغي لنا أن ننشئ الجسور، غير أن الورق البالي المحتوي علي أسماء الأطفال المذبّحين سيقلق البال من جديد. إذا كان يجب علي الحقيقة الصربية أن تظهر فما حلّ الوقت! بل إن الوقت قد حلّ! و هو الوقت، بقدر أكثر انقضي، فالقصة عن الأطفال المذبّحين ستطوف الدنيا أكثر فأكثر و ستزعج الضمير البشري أكثر فأكثر.
و ذلك لأن هناك قصصاً ليس بإمكانها أن تهرم أبداً. إنها تتحرك و هي ثابة في مكانها. مثل تلك القصص بإمكانها أن تبقي بعد زوال نفسها، بإمكانها أن تقي من الرضوض، من الدود القرعي، و الأشجان، و الأرواح الخبيثة و بإمكانها أن تدوم إلي غير النهاية.
لا تقبل تحريقاً و لا هلاكاً و لا ضياعاً.
لا يمكنها أن تُدفن رجاء أن تُمحي.
ألأطفال المذبّحون لا يمكنهم أن يُجعلوا أغفالاً من الاسم، لا يمكن مجرد تنفيضهم إلي الخلاء.
يا أيهاالأب الأقدس، ليس ورق الصحف بوهم! لا ثلج في إمكانه أن يغطّيه، و لا ريح بإمكانها أن تخرقه، و لا مطر يستطيع أن يشطفه، و لا شمس تستطيع أن تحرقه، و لا نار بإمكانها أن تُحرقه و لا عشب ضارّ يستطيع أن يغشّيه، مهما يكن واهناً و مسامّياً. مهما يكلح، يبل و يفسد، فتنبعث من تحته أسماء الأطفال المذبّحين انبعاثاً زائداً وضوحه ماثلاً تشوية الفشار و هو ينفقّ.
رادويكا، سيماون، يوفان، يلانا، دوشان، دوشان، يوفانكا، دوشان، دراغومير، مارا، ميلان، اوستويا، ميلافا، جورو، ميلان، دوشان، غوسبافا، دراغيتسا، رادميلا، ميلوراد، اوستويا، سلافكو، دوشان، زوركا، غويكو، زدرافكو، ميلان، اوستويا، برانكو، دراغيتسا، سلافكا، ليوبيتسا، ميلافا، مارا، ميتار، دارينكا، نادا، سفتوزار، برانكو، فيدوسافا، يوفان، ميلوش، زدرافكا، ستامانا، آنكا، برانكو، ميلافا، ماريا، نادا، دزيفكو، ميلان و ميليفويه.
لا بدّ من وجود العدل في صورة عليا من صوره.
لا بدّ من وجود قاض لا يخطئ.
طابت ليلتكم، يا أيها الأب!

نقل: سوزانا فينوفيتش
Prevod: Suzana Vejnović